موقف الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي من الظلم

أ.د. محمد خليل جيجك(*)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمد عباده الصالحين والصلاة والسلام على أفضل الخلق سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.

تمهيد

إن الله سبحانه خلق الإنسان مظهرا لشؤونات عجيبة وتصريفات غريبة ومن أهمها ما ركب في طبيعته من الميولات المتنوعة، والأحاسيس المختلفة، والأهواء العديدة، والاستعدادات الغزيرة، والكفاآت النادرة، والمؤهلات الجامعة والقابليات الفذة فركب في فطرته القوى الثلاث: الشهوة، والغضب، والعقل إلى جانب ما يدعم تلك القوى الثلاث من امتدادات الأحاسيس ومختلف الحواس والمشاعر وبكل واحد منها يجول الإنسان في ميدان خاص غير ميدان الآخر، وينعكس من كل منها في مجالات حياته المختلفة آثار متخالفة إما إيجابية أو سلبية إضافة إلى ما لتلك القوى الثلاث من مراتب الإفراط والتفريط والوسط التي يدور في فلكها جميع ما تتجلى في الحياة من متنوع النشاطات والعمليات والتصاريف الإنسانية التي تنبعث من قواه الداخلية.

إن هذا الإنسان الذي ركب الله في جبلته شتى القوى والاستعدادات وركب في خلقته شتى قوى الإدراك ووهب له جم الميول والأحاسيس والمشاعر إذا أطلق سراحه وسرِّح عنانه ولم يرب بهداية الوحي ونور النبوة ارتكب في مهامه الحياة وأودية المعاش أنواعا كثيرة من المفاتن والمفاسد وافتعل أصنافا كثيرة مما تشده له النفوس من الظلم

(*) الأستاذ الزائر في قسم التفسير من كلية الإلهيات بجامعة أنقرة.

والجور فيحتاج لزاما إلى من يرشده إلى الهدى وينبهه على التقى ويدله على طرق العدل ووسائل الحق. إن التجربة البشرية في القرنين العشرين والحادي عشرين أثبتت بصورة مرعبة عبر الحربين العالميين وعبر احتلال الاتحاد السوفياتي لأفغانستان وعبر الاحتلال الأمريكي للعراق وأفغانستان وعبر غارة الصرب في قلب أوربا على البوسنويين العزل أثبتت أن الزاد البشري في العلوم والمعارف الإنسانية والمعلومات الاجتماعية الحديثة ذلك الزاد الذي لم يسترشد بأنوار الإرشاد الإلهي ولم يتنور بأشعة الوحي الرباني ليس بكاف ولا واف في كف الإنسان وارعوائه من متابعة أهوائه وكذلك أثبتت أن مكتسباته في العلوم التربوية وقطعه للمسافات الشاسعة في مجال تربية بنيه بالطرق الحديثة والأساليب المعاصرة المتمدنة لا تسمن ولاتغني من جوع في ردعه وزجره من ارتكاب أبشع أنواع الظلم وافتعال أفظع أنواع الجرائم. وهو ما فعله المربون بأحدث أنواع التربية في سجن أبي غريب جهنم التعذيب تجاه ذلك الشعب المسلوب منه جميع حقوقه وحرياته بحجة إتيان الحريات، نعم! إن ارتكاب أبشع أنواع الظلم تجاه الآخرين هو اللازم الغير المفارق للناس المتمدنين في يومنا هذا بدون زيادة ولا نقصان.

فحيث كان النورسي متنبها لهذه الحقيقة وواعيا لها تمام الوعي استرعى أنظارنا جميعا لما ارتكب خلال الحرب العالمية الأولى من الفظائع والمظالم والمجازر الجماعية إذ يقول: لقد قاست البشرية من ويلات هذه الحرب العالمية الأخيرة ايّ مقاساة، اذ رأت أشد أنواع الظلم وأقسى أنواع الاستبداد والتحكم، مع الدمار الظالم المريع في الارض كافة، فقد نكبت مئات الابرياء بجريرة شخص واحد، ووقع المغلوبون على أمرهم في بؤس وشقاء مريرين.[1]

وحينما نعودا كراً إلى الوراء ونحاول أن نطلع على شؤون الأقدمين ونستيقن عن مواقفهم تجاه الظلم نجدهم أنهم لم يكونوا بأحسن حظا وأوفر نصيبا وأكمل أخلاقا من هؤلاء الحداثيين في ارتكاب أكبر المظالم والمفاسد فإن الإنسانية سجلت عبر التاريخ أنواعا مرعبة من فظائع الظلم في زوايا ذاكرتها وأفعمت صحائف سجلاتها من مختلف أنواع الجور الذي عانته على أيدي الملوك والأكاسرة والقياصرة والفراعنة والتبابعة

(١) النورسي بديع الزمان سعيد، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، إستانبول ١٩٩٨\١٤١٩، ص ١٧٢.

والبخاصرة والأباطرة وغيرهم إضافة إلى تلك المظالم التي ارتكبت خلال تلك الحروب الدامية المدمرة مدى كل التاريخ وخصيصا منها تلك المظالم التي تقشعر منها الجلود وتشمئز منها النفوس وترتعد منها الفرائص وتجِف منها القلوب التي ارتكبت برقابة رجال الدين وبتوقيع منهم في زنازن محاكم التفتيش، ومن خلال الحروب الصليبية، ومن خلال استيلاء الصليبية على الأندلس، ومن خلال تلك الغارة التتارية الشعواء التي لم تدع رطبا ولا يابسا فيما استولت عليه من العالم الإسلامي إلا قضت عليه. فجميع هذه المظالم التي ارتكبت عبر التاريخ بأيدي الأقدمين وفي يومنا هذا بأيدي الحداثيين صارت في جبين التاريخ عارا لا ينمحي وشينا لايغتفر. إذاً يستنتج من معطيات التاريخ القديمة والحديثة أن هذا الإنسان الذي لم يتغذ بتربية الوحي ولم يرتضع بلبان الهدي الرباني لا يكاد أن يتخلص من الظلم والقسوة والوحشة والشدة، مهما زادت قوته في العلوم والمعارف أو علت مكانته في الثقافة أو مهما تحلت بأحدث طراز التربيات العصرية.

استبان من هذه التجارب البشرية السيئة القاسية القديمة والحديثة أن بني آدم يحتاجون في الابتعاد عن الظلم إلى نوعية أخرى من أنواع التربية وهو تلك التربية الدينية التي تثبت جذورها في أعماق الإنسان تخالط لحمه ودمه وتلازم الإنسان ملازمة الظل لصاحبه في نهار مشمس ولا تفارقه في خلوته وجلوته ولافي حال من أحواله ولا تحتاج في تحققها إلى قيام السلطات وذوي القهر والبطش على رؤوس الناس. وتلك التربية الغير المحتاجة إلى فرض القوات ورقابة السلطات لا تتحقق غالبا إلا بترسيخ العقيدة الحقة التي تهيمن على الإنسان في مجلاه ومكمنه، وظاهره وباطنه، وسره وعلانيته. فإن تلك العقيدة هي التي بمقدرتها أن تنظم مجاري الحياة ومسالكها، وتمنع عنها جميع عوامل الفساد وأسباب الشر ووسائل الفتنة، وهي التي تستطيع أن تجعل المجتمعات البشرية مأوى للطمأنينة والسكينة؛ وأما بدونها فقد أثبتت التجارب الإنسانية القديمة والحديثة أن الحياة بدون قيادة الدين الحق تنقلب بين عشية وضحاها إلى جهنم الفتن والمظالم، ومستنقع الدعارة والخلاعة، وغدير الجور والقسوة كما يشير إلى ذلك العلامة النورسي بقوله: إن الشباب والمراهقين الذين يمثلون محور الحياة الاجتماعية لا يهدّئ فورة مشاعرهم، ولا يمنعهم من تجاوز الحدود إلى الظلم والتخريب، ولا يمنع طيش أنفسهم ونزواتها، ولا يؤمّن السير الأفضل في علاقاتهم الاجتماعية إلاّ الخوف من نار جهنم. فلولا هذا الخوف من عذاب جهنم لقلب هؤلاء المراهقون الطائشون

الثملون بأهوائهم الدنيا إلى جحيم تتأجج على الضعفاء والعجائز، حيث "الحُكُم للغالب "ولحوّلوا الحياة الإنسانية السامية إلى حياة حيوانية سافلة.[١]

إن البشرية مرت بتجاريب مريرة عبر تاريخها الطويل وطوال عمرها المديد وعانت كثيرا من أقسى أنواع الظلم على أيدي المجرمين المغتصبين الذين تأتى لهم ارتكاب المظالم الجماعية بمساعدة تلك الظروف التاريخية القاسية التي كانت متهيئة لفعلهم أفظع أنواع الظلم على بني جلدتهم، وذلك الظلم كان منتشرا ذائعا في غالب قطاعات البشر في مشارق الأرض ومغاربها. ويعني هذا أنه كان صاحب الكلمة في تلك الأجواء الملوثة بانتهاك الحقوق هو القوة بدلا من الحق. نرى آثار ذلك واضحا في ما خلفه تلك الأدوار التاريخية لنا من الآثار الأدبية والأشعار العربية وغيرها فمثلا يقول الشاعر:

فلما أصبح الشر وأمسى وهو عريان * ولم يبق سوى العدوان دناهم كما دانوا

ولما ترسخ في الأوساط البشرية السالفة من اعتياد الظلم ولتعود المجتمع عليه صار الظلم بمنزلة سنة اجتماعية وثقافية أخلاقية لا بد منها للناس وهذا الاعتياد الاجتماعي هو الذي جعل حكيم شعراء العرب زهير بن أبي سلمى يقول:

ومن لم يذد عن حوضه بلسانه * يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وإلى جنب هؤلاء الذين لم يكونوا ليستفظعوا أمر الظلم بل كانوا يتلقونه من الأمور العادية إلى أن صار من أمثالهم الشائعة السارية فيهم قولهم: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما" كان هناك من أرباب الفطر السليمة من كان يبدي كراهيته للظلم واستيائه منه إلى أقصى الحدود كما يظهر ذلك من قول القائل:

ولا يقيم على ضيم يراد به * إلا الأذلان عير الحي والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته * وذا يشج فلا يرثى له أحد[٢]

ترى الشاعر العربي جعل بجبلته النقية وخلقته الصافية قابل الظلم ومتحمله بمنزلة الحمار الذي يسام ذلا وهوانا أو بمنزلة الوتد الذي يدقه المرء كي يغرز في الأرض أو

---

(١) المصدرالسابق، ص ١٠٥.

(٢) التفتازاني مسعود بن عمر، مختصر المعاني، إستانبول بلا تاريخ، ص ٣٩٩.

الجدار فربما يتشقق رأسه من كثرة الدق لكن لا يرثى ولايرق له أحد. وفي هذا حث بليغ للإنسان على أن يعارض الظلم ويكافح ضده.

حينما نراجع السجل التاريخي للإنسان الممتلئ بمشاهد الظلم والجور نستيقن أن الظلم كان من اعتيادات البشر بشتى طبقاته ومن أكثر ممارساته المخزية دوما وإن اختلفت درجاته ومستوياته، ومراكزه ومظاهره، ووسائله وآلياته، وعلله وأسبابه. ومعظم من جاء من أرباب الحكمة والنصفة كافح ضده أو ضد جانب من جوانبه مكافحة ما، نجحت أم فشلت، لكن الواقع الإنساني من القديم إلى الحديث وفي الأزمنة الحديثة بصورة أبلغ يعطينا درسا آخر وهو أن الإنسان الذي لم يكن متربيا بالتربية الإيمانية الرفيعة ولم يكن مهتديا بالهدي السماوي السامي مهما ترقى في مدارج التقدم والترقي أو مهما اعتلى عروش الحضارة والحداثة فلن يتأتى له أن ينجو من الظلم في إحدى مظاهره لأنه -كما قال الشيخ النورسي- بما ركب في فطرته من القوى الثلاث المذكورة يكمن الظلم في جبلته.[1]

١- الظلم في المنظور القرآني

إن القرآن الكريم أتى -يوم أتى- كفيلا بإستيفاء جميع متطلبات الحياة السليمة العادلة الفاضلة كي يحيطها بسياج من الحيطة والصيانة والحماية تجاه أعاصير الفتن وعوامل الفساد وأسباب الانهيار، ومن هنا إن الله سبحانه ضمن في كتابه العزيز جميع ما يكفل للمجتمع أمنه وأمانه، وحرم ضمن آيه البينات فيما بين العباد جميع تلك الأمور التي تزلزل أمن الأمة وتتخلخل بها طمأنينته وسكينته فركز عنايته القصوى على كل واحد من وسائل الشر ومؤديات الفساد وأسباب تخلخل أمن المجتمع كالربا، والميسر، والسرقة، والاغتصاب، والنهب، والسلب، والغيبة، والنميمة، ويأتي على رأس تلك الأمور الظلم الذي هو من أكثر الأمور انتشارا بين الكثير من طبقات الناس كالأقوياء، والأغنياء، والساسة، والقادة قديما وحديثا فقلما خلا مجتمع أو جماعة أو طائفة منه فكان حقيقا بالفرقان المبين أن ينهى عنه ويحرمه تحريما بالغا فندد به وهدد عليه وحرمه فيما يقارب ثلاث مأة آية من آياته.

---

(١) النورسي بديع الزمان سعيد، اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، إستانبول ١٩٩٣\١٤١٣، ص ١٣٥.

ومن الملفت للنظر في هذا السياق أن للكتاب العزيز تجاه الظلم مواقف متنوعة وتناولا له متعددا فبعضا نفَّر منه وكرهه إلى القلوب كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (هود: ١١٦) وفي قو له تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٧) وبعضا هدد عليه بأبلغ ما يكون من التراكيب وأفصح ما يكون من الأساليب ترى ذلك في أمثال هذا النص المبين: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٧) وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (يونس: ٥٤) وفي قوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (سبأ: ٤٢) وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف: ٢٩) إلى آخر تلك الآي التي تعد الظالمين وتهددهم وتوعدهم. وبعضا آخر نرى النص الكريم يبين ما للظلم من تلك العاقبة الوخيمة الوبيلة كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (الفرقان: ٢٧) ومثل قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (الزمر: ٥١) إلى آخر تلك الآي التي تأتي في مواعيدها تجاه الظلم والظلمة كالرعد القاصف والبرق الخاطف. إن الإيعاد بهذه المواعيد الشديدة والتجزيات الفظيعة تدل على شدة شر الظلم المتوعد عليه وعلى فظاعة نكرانه في المنظور الإسلامي. ومن بليغ ما يدل على سوء موقع الظلم في المنظور الإسلامي أنه سمى الكفر والشرك بشتى مظاهرهما ظلما وسمى الكافرين والمشركين ظالمين. ففي هذا دلالة بالغة حكيمة وتسمية صائبة قويمة على كراهة هذا الدين الحنيف للظلم أشد الكراهية. وفي العدوة الأخرى نرى الفرقان الحكيم نفى عن جناب الله الأقدس الظلم في عديد من الآيات في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (النساء: ٤٠) وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (يونس: ٤٤) وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (التوبة: ٧٠) وفي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (الأنفال: ٥١) يقول ابن كثير (ت ٧٧٤) في تفسير الآية أي لا يظلم أحدا من خلقه بل هو الحكم العدل الذي لا يجور، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه الغني الحميد.[1] فنفى بتاتا في هذه الآيات والعديد

(١) ابن كثير أبو الفداء، اسماعيل، تفسير القرآن العظيم، مؤسسة الريان، بيروت ١٤٢٠\١٩٩٩، ج ٢،

من غيرها الظلم عن ذاته تعالى بأوكد الأساليب وأوفى التراكيب فإذاً إنه سبحانه كما لا يرضى بالظلم من نفسه فلا يرضى بالظلم من عباده أيضا كما ورد صريحا في الحديث القدسي الذي صححه مسلم عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله تعالى يقول: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا..."[١]

والملفت للنظر في هذا السياق أيضا أن الله سبحانه حينما يندد بالظلم وينهى عنه ويعد عليه في هذه النصوص وأمثالها يختار الإطلاق في العبارة والإجمال في الدلالة والتعميم في الإفادة فلا يخصص أي مجال من مجالات الظلم بالذكر -وإن كان الشرك متبادرا من البعض منها- وبذلك يستوعب البيان القرآني جميع جوانب الظلم وأنواعه وجميع تلك المجالات التي يقع فيها الظلم بين فينة وأخرى، فيدل على موقف الإسلام الحاسم من الظلم وأسبابه ومؤدياته، ويستبين كوضح النهار أنه لم يأذن الله في شيء منه، وأنه تعالى حرم الظلم من جميع عباده على جميع خلقه بكافة أنواعه وعامة مظاهره.

فقد استبان مما مر بنا أن للإسلام تجاه الظلم موقفا حاسما لا هوادة فيه أبدا فإن العدل هو الروح السارية في تعاليم القرآن الحكيم ومبادئه وعلى أساسه تكونت الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية، فكما أمر الإسلام بالعدل والقسط أمرا مؤكدا بدون التسامح في الرغبة عن أي جزئي منه كذلك قد حرم الظلم بجميع أنواعه وأطيافه وألوانه حتى ظلم الإنسان لنفسه ومن باب أولى ظلمه لغيره[٢] إذ الظلم يتنافى أولا مع صفة الله العدل ومع الكثير غيرها من صفات الله التي مردها إلى العدل والرحمة، ويتعارض ثانيا مع معظم تعاليم الإسلام الرحيمة ومبادئه الشفيقة وأوامره العادلة، ويتناقض ثالثا مع روح العدل الذي يسود جميع أحكام الإسلام.

٢- معارضة الأعلام المسلمين للظلم

استبان مما مر معنا من ذلك التركيز القرآني المنبث عبر جميع أرجائه على الظلم ومن التنديد الشديد به أن الظلم في المنظور القرآني أقبح شيء وأرذله وأخطره فلا

ص ٤٢١.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) محمد عمارة، الإسلام في عيون غربية بين افتراء الجهلاء..وإنصاف العلماء، دار الشروق، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤٢٥\٢٠٠٥، ص ١١.

يمكن بحسب المنظور القرآني أن يستسيغ العقل المسلم- سواء على المستوى الفردي أو على المستوى الجماعي- شيئاً من مواقف الظلم.

إذاً موقف الإسلام من الظلم والظلمة موقف واضح مستنير لا لبس ولا غبش فيه فهو موقف رد حاسم وإنكار جازم ورفض قاطع وتحريم ظاهر وحظر بات لاهوادة فيه أبدا ولا إغماض عن أي شيء منه ولا تسامح عن أي جُزَيْءٍ منه أبدا ففي الظلم بغي وعدوان وفيه جور واستطالة على حقوق الغير وفيه انتهاك بعرض الناس، وطعن في شخصياتهم وقدح في مروآتهم فلا يتوائم مع أي شيء من أوامر الإسلام السمحة العادلة ولا ينسجم مع أي شيء من مبادئه الرحيمة الحكيمة ومن هنا لا يمكن أن يسمح الإسلام لأي شيء من أنواع الظلم مهما صغر أو قل. ولذا وقف علماء الإسلام الربانيون طيلة التاريخ الإسلامي تجاه الظلم والظلمة موقف المعارض المحادّ، وما كانوا ليتغاضوا عن ظلم الظالمين أوليغمضوا عن اعتداء المعتدين مهما كان الثمن باهظا أو التكلفة شاقة بل كانوا يجادلونه ويرفعون منار الحق ضده بما أوتوا من إمكانيات وآليات اعتقادا منهم بأن أفضل طرق إرساء الحق في المجتمع وأنجع وسيلة في اكتساب ثقة المجتمع ونشر بوادر الأمان والطمأنينة في نفوس الناس هو تنقيته من أدران الظلم والجور، وكان كل ذلك منهم لما ترسخ في نفوسهم وأثبت دعائمه في قلوبهم من تلك العقلية الناصحة النابتة من مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ (هود: ١١٣) ومن مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (الحجر: ٤٢) ومن مثل ما ورد في الحديث النبوي الشريف "أن أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر"[(١)].

وهذا الموقف الحاسم من الظلم هو الذي وجه علماء الإسلام الربانيين كافة ورباهم تربية روحية قوية على كراهية الظلم والوقوف ضده في تلك المواقع الخطيرة والأماكن المهلكة مهما نتج عنه من عواقب مردية ونتائج مدمرة كما نرى ذلك في مواقف عديدة لعلماء الأمة عبر تاريخها الطويل من مثل مواقف عطاء بن أبي رباح،[(٢)]

(١) رواه أحمد بن حنبل في مسنده من طريق طارق بن شهاب. المكتبة الشاملة الألكترونية الإصدار الثاني.

(٢) انظر لبعض مواقف عطاء بن أبي ر باح جيجك محمد خليل، دلالة أسماء سور القرآن الكريم من منظور حضاري، مؤسسة الرسالة، بيروت ٢٠٠١، ص ٤٢-٤٣؛ الذهبي شمس الدين محمد بن

وطاوس بن كيسان، وسعيد بن جبير، والنووي، والعز بن عبد السلام[1] وغيرهم في تلك المواقف الحرجة تجاه أولئك الظلمة المتكبرين والجبابرة المتستهترين. واستمر ذلك الموقف المعاكس للظلم والظلمة في أسلافنا إلى يومنا هذا ودام من غير فصام ولا حسام. وفي الحلقة الأخيرة نجد الشيخ النورسي يعلن دعوة الهدى ويصدع بكلمة الحق في أحرج المواقف وعلى أصعب المراكب من مثل موقفه العظيم تجاه القائد الروسي المتغطرس بأنفه وهو في ذروة عليائه ومثل موقفه العجيب تجاه رئيس المحكمة العرفية خورشيد باشا الذي أتى بقراراته الظالمة على كل رطب ويابس ومثل مواقفه العديدة تجاه مصطفى كمال وهو في قمة سطوته وغطرسته وأوج كبريائه. فجميع هذه المواقف من النورسي ومواقفه العديدة الأخرى فيما بعد في المحاكم التركية تجاه ظلمة القضاة تلك المواقف التي استمرت طيلة حياته وإلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة تدل على أن معارضته للظلم وصدعه بكلمة الحق في وجه الباطل والظالم كان جزأ غير منفصل من كيان النورسي وعنصرا أصيلا من شخصيته الفذة فإننا إذا ألقينا نظرة من علُ على مجمل حياة النورسي رأينا بأم أعيننا أن أبرز ملا مح تلك الحياة العبقرية للشيخ النورسي بعد الحجاج على أركان الإيمان والنفاح عنها علميا وعمليا هو معارضته للظلم ومقاومته في وجه الظلمة مهما كان الموقف حرجا أو كان التكلفة كبيرة فما كان رحمه الله يأبه بكبرياء المستكبرين وما كان يلتفت إلى سطوتهم وصولتهم بل إذا ما أتى دور إظهار الحق أظهره بلا مبالاة ولا مغالاة! أفلا يدل على نبذة من ذلك أنه رحمه الله حينما غادر تلك المحكمة العرفية الغاشمة الآنفة الذكر التي كانت عشرات الجثث معلقة على أعواد المشانق في ساحتها قال بصوت جهوري عال: "فلتحي جهنم للظالمين" أو قوله: "ابصقوا في تلك الوجوه الوقحة لشرذمة الظالمين" فكان رحمه الله كبركان عظيم يتفجر دائما تجاه الطغاة والمستبدين والظلمة الجائرين. وفي هذا درس بالغ لجميع من يأتسون بالأسوة الحسنة أن يأتسوا بالنورسي في صولته على جميع أنواع الظلم وأصناف الظلمة. وهو ما دعانا إلى أن نخصص هذه الورقة لكفاح النورسي ضد الظلم.

أحمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية بيروت ١٤٠٢\١٩٨٢، ج ٥، ص ٨٤.

(١) انظر لبعض من مواقف العز بن عبد السلام، الصلابي علي محمد، الأيوبيون بعد صلاح الدين، دار المعرفة، بيروت ١٤٣٠\٢٠٠٩، ص ٤٤١، ٤٤٤، ٤٤٥-٤٥٠.

٣- أنواع الظلم حسب منظور النورسي

إن الشيخ النورسي رحمه الله كان متفطنا لما جرى عبر التاريخ وما كان يجري على الساحة العالمية إبان حياته وخبيرا بجميع ما مني به البشرية عامة والمسلمون خاصة في مشارق الأرض ومغاربها من أنواع الظلم وأصناف الجور فتراه يصول على الظلم صولة الأسد الهصور، سواء كانت أنواع ذلك الظلم من اغتصاب الحقوق الإنسانية كمنع الحريات أو كانت من تسلط المستبدة على مراكز الحكم وإقصاء أهل الحل والعقد من اشتراك الحكم. فحينما يذكر الشيخ النورسي ما وقع أثناء الحرب العالمية من المآسي يعرب عن ذلك فيقول: "لقد قاست البشرية من ويلات هذه الحرب العالمية الأخيرة أيّ مقاساة، إذ رأت أشد أنواع الظلم وأقسى أنواع الاستبداد والتحكم، مع الدمار الظالم المريع في الارض كافة، فقد نكبت مئات الابرياء بجريرة شخص واحد، ووقع المغلوبون على أمرهم في بؤس وشقاء مريرين..."[١]

وإذاما تتبعنا كلام النورسي يتراآى لنا أن النورسي يذكر للظلم في شتى السياقات من كلامه أنواعا عديدة: فمنها ما هو جبلي، ومنها ما هو اقتصادي، ومنها ما هو اعتقادي، ومنها ما هو شهوي نفساني، ومنها ما هو سياسي ناشئ من السياسة السيئة والولاية الغاشمة، ومنها ما هو حضاري ناشء من ثقافة الحضارة الغربية. فهذه هي إجمال أنواع الظلم والجور باختصار حسب منظور النورسي أو هذه هي أنواع الظلم التي ركز عليها النورسي عبر كتاباته.

وحينما نتغلغل في ثنايا كلامه في كتاباته ورسائله نجد أن الشيخ رحمه الله يفصل شيئا من التفصيل -حسبما اقتضاه المقام ووائمه السياق- كل واحد من هذه الأنواع ويذكر وجهة كونها ظلما على النفس أو الآخرين. وهيا بنا الآن نفصل تلك الأقسام قليلا:

١.٣- الظلم الجبلي

هو الظلم الناشيئ عما كمن في جبلته[٢] وأدمج في خلقته من القوى والأحاسيس والشهوات والدوافع الغريزية التي تدفعه إلى الظلم دفعا فحينما ينص النورسي على ما

---

(١) النورسي، الكلمات، ص: ١٧٢.

(٢) النورسي، اللمعات،، ص ١٣٥.

تتمتع به الجبلة الإنسانية من القوى الثلاث القوة الشهوية والغضبية والعقلية[١] يكون مشيرا بذلك إلى أن في تركيبة الجبلة البشرية نوازع إلى الظلم ودوافع إلى الجور فهي المصدر لكثير من الآعتداآت والتجاوزات والمظالم والمفاسد عبر التاريخ وإلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. حتى إننا نرى الشيخ النورسي يتعدي إلى حد أبعد في الاستبانة عما يحتوي عليه النفس البشرية من محركات الفساد إذ يقول: إن الفاسق بتجاوز القوة العقلية عن حد الاعتدال يكسر رابطة العقائد ويمزق القشر الحصين أي الحياة الأبدية .. وبتجاوز القوة الغضبية يمزق قشر الحياة الاجتماعية . وبتجاوز القوة البهيمية واتباع الهوى يزيل عن قلبه الشفقة الجنسية فيفسد ويورط الناس فيما تورط فيه فيكون سببا لضرر النوع وفساد نظام الأرض.[٢]

ومما يزيد جبلية الظلم للإنسان وضوحا أن الإمام النورسي يرى انطلاقا من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب: ٧٢) أن الإنسان مستعد بما أدمج في فطرته من بعض الآليات للظلم الرهيب المغروز في فطرته.[٣] ويؤيد هذا أيضا قول ابن عاشور (ت ١٩٧٣): ويجوز أن يراد ظلوما جهولا في فطرته أي في طبع الظلم والجهل فهو معرض لهما ما لم يعصمه وازع الدين.[٤] ثم يزيد الشيخ ابن عاشور هذا المعنى استيضاحا إذ يقول بعد كلام: وفي ذكر فعل "كان" إشارة إلى أن ظلمه وجهله وصفان متأصلان فيه لأنهما الغالبان على أفراده الملازمان لها كثرة أو قلة. فصيغتا المبالغة منظور فيهما إلى الكثرة والشدة في أكثر أفراد النوع الإنساني.[٥]

فكنتيجة طبعية لهذا يرى النورسي أن من أهم أسباب الظلم والجور بين العباد القوة ويرى أن مثل القوة كمثل شجرة خبيثة شجرة زقوم، تنبت من غصن تلك القوة البهيمية الشهوية الاصنام المصطنعة والآلهة الموهومة إذ الفلسفة بما في طبيعتها من الغطرسة والأنفة تحبذ أصلاً القوة، وتتخذها أساساً وقاعدة مقررة لنهجها، حتى إن مبدأ " الحكم

---

(١) النورسي، إشارات الإعجاز، ص، ٢٠٨، صيقل الإسلام/محاكمات، ص ١٣٩.

(٢) النورسي، إشارات الإعجاز، ص ٢٠٨.

(٣) النورسي، الصيقل الإسلامي، ترجمة وتحقيق إحسان قام الصالحي، دار سوزلر للنشر، الطبعة الأولى، إستانبول ١٤١٦\١٩٩٥، ص ٣٤٥.

(٤) ابن عاشور محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس ١٩٨٤، ج ٢٢-٢٤، ص ١٣٠.

(٥) نفس المصدر.

للغالب " دستور من دساتيرها، وتأخذ بمبدأ "الحق في القوة" فأعجبتْ ضمناً بالظلم والعدوان، وحثت الطغاة والظلمة والجبابرة العتاة حتى ساقتهم إلى دعوى الالوهية.[١] وحبذا هذه المقاربة من النورسي فإنها قرائة نفسية وفلسفية منه لاستكشاف جذور الأحاسيس والنزعات المخبوئة في النفس الإنسانية التي ينشأ منها الظلم ودواعيه.

٢.٣- الظلم الاقتصادي

إن الظلم الاقتصادي ينشأ من الأسباب والأحداث والتصريفات والإجراآت الاقتصادية التي تجريها الناس في الواقع المعيش فمن سوء الممارسات الاقتصادية التي يمارسها الناس ينشأ بين أفراد المجتمع وبين شتى طبقاته أنواع عديدة من الظلم وهم لايشعرون. وفي هذا السياق نرى الشيخ النورسي يشير إلى بعض من أنواع الظلم التي تنشأ من تلك الممارسات الاقتصادية بقوله: إن أس أساس جميع الاضطرابات والثورات في المجتمع الإنساني إنما هو كلمة واحدة كما أن منبع جميع الأخلاق الرذيلة كلمة واحدة أيضا الكلمة الأولى وهي "إن شبعت فلا علي أن يموت غيري من الجوع"، الكلمة الثانية "اكتسب أنت لآكل أنا واتعب أنت لأستريح أنا" فالكلمة الأولى قد ساقت الخواص الى الظلم والفساد، ودفعت الكلمة الثانية العوام الى الحقد والحسد والصراع. فسُلبت البشرية الراحة والامان لعصور خلت كما هو في هذا العصر، حيث ظهرت حوادث أوربا الجسام بالصراع القائم بين العاملين وأصحاب رأس المال كما لا يخفى على أحد.[٢]

٣. ٣- الظلم الاعتقادي

إن الظلم الاعتقادي ينشأ من الاعتقاد السيء الجائر في الله ورسله وملائكته وسائر ما يتحتم الإيمان به. إن الإمام النورسي عليه رحمة الله يتوسم بحكمته العميقة ويرى بفراسته الحكيمة أن أكبر أنواع الظلم وأعظم أنواع الجور هو الكفر بالله تعالى والإشراك له. فالذي يترك طاعة مولاه المنعم الممتن عليه بشتى أنواع المنن والنعم ويعبد النفس ويعبد الطبيعة إذاً في منتهى الحماقة ومنتهى الظلم.[٣] ويشهد لهذا الظلم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (يونس:

(١) النورسي، الكلمات، ٦٤٣

(٢) النورسي، الكلمات، ص: ٤٧٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٤٩.

١٠٦) لأن الإنسان بكفره وإشراكه يسيء الأدب أيما إساءة في جنب الله وتلك الإساءة تعد واعتداء في الوقت نفسه على حقوق جميع ملك الله وملكوته وبذلك يثير الكافر بكفره غضب الموجودات كلها عليه فيقترف الظلم والإسراف.[١] لأن من يسيئ الأدب في حق مالك شيئ ما وسيده فهو يسيء الأدب في الوقت نفسه تجاه جميع مملوكات ذلك المالك السيد، فالكافر يكون ظالما بكفره جميع المخلوقات وجائرا عليهم. ومن جراء هذا ندد القرآن بهذا الظلم الناشئ من الكفر وشدد النكير عليه وأعلن على رؤوس الأشهاد أن لا أحد أكثر ظلما ممن افترى على الله بكفره وشركه فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (هود: ١٨) لأن الكافر يتعدى بكفره على جميع المخلوقات فهو أكثر الناس ظلما وعدوانا فسمى القرآن الحكيم الشرك ظلما فقال ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣) وسمى في الكثير من الآيات الكافرين ظالمين فقال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٤) ولعنهم في غير ما آية فقال ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف: ٤٤) وشيء آخر هو أننا نرى النورسي يجوب شوطا أوسع في منظوره إلى الظلم إذ يرى الفسق أيضا ظلما حيث إن فيه – حسب منظور النورسي- عدولا عن الحق وتجاوزا عن الحد وخروجا من القشر الحصين.[٢] وهو حكم الإسلام الحكيم فهو الظلم نفسه.

وشيء آخر يتحتم التعرض له حينما نتناول الظلم الاعتقادي وهو أن كثيرا من المظالم التي ارتكبت عبر التاريخ إنما ارتكبت بسبب الديانات الباطلة والاعتقادات الفاسدة أو الفهم الخاطئ لنصوص الدين الحق أو التطبيق السيء لها. إن تلك المظالم الفظيعة التي اقترفتها النصارى في حروبها الصليبية وفي الفترات الاستعمارية سواء تجاه المسلمين أوغيرهم وكذلك تلك المظالم الشنيعة التي تشمئز منها الصدور وتنفر منها القلوب التي اجتنتها النصرانية في محاكم التفتيش ضد أبناء دينها من أكبر معالم الشين في جبين التاريخ ولا تنسى أبدا.

---

(١) النورسي، اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، الطبعة الأولى، إستانبول ١٩٩٣\ ١٤١٣، ص ٥٢٦.

(٢) النورسي، إشارات الإعجاز، دار سوزلر للنشر إستانبول ١٩٩٤، ص ٢٠٨.

٣. ٤- الظلم الشهوي والنفساني

إن الإنسان كثيرا ما يتبع هواه ويطيع أماني نفسه بما ركب فيه من تلك القوى الثلاث التي مر ذكرها معنا فيهوي في أخاديد المعاصي ومستنقعات الظلم إذ يجد في نفس الفسق والظلم لذة منحوسة وعزة خبيثة لا تتنفر منه النفس،[١] ومن الجانب الآخر إن قوى الإنسان وميوله لم تتحدد فطرة بخلاف الحيوان فميله نحو الظلم لا يحد ولاسيما إذا انضمت إلى ذلك الميل الأشكال الخبيثة للأنانية كالإعجاب بالنفس وتحري المصلحة الشخصية والكبر والعناد والغرور فتتولد منها جرائم بشعة[٢] ومظالم فظيعة، ومن هنا إن النفس الإنسانية لكثير من الناس تشتهي في كثير من الأحيان بحكم قوتها الشهوية أو الغضبية تلك الأفعال والأحوال التي تتسم هي نفسها بالظلم والجور أو تهيج الأهواء وتدفع الإنسان إلى الظلم.[٣]

وللنورسي مقاربات قيمة طريفة نحو هذا النوع من الظلم فيوسع مجاله ويستنكر إغماض بعض المنافسين السياسيين عما في منافسيهم من المزايا الحسنة والصفات الكريمة وكذا يستنكر بغضه لأحبة معارضيه فيرى ذلك ظلما وتمردا[٤] تجاه قول الباري جلت حكمته ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام: ١٦٤)

وكذا من ملاحظات النورسي الطريفة في صدد الظلم الذي يكون لأسباب شهوية أنه يرى أن الإنسان ربما يكون له رغبة في أمر لا يكون مقبولا حسب الموازين الشرعية ولكن الإنسان إخفاء لأمره وتلبية لشهوته يسمي رغبته تلك تفكيرا فيُلبِس الفكر لباس الانتقام الشخصي الظالم[٥] فيقع في حيص بيص من الفتنة..!

٣. ٥- الظلم السياسي

إذا راجعنا السجل الإنساني الذي تكوَّن له عبر التاريخ ومن خلال أعماله الجمة التي عاشها الإنسان في تاريخه الطويل وجدنا بدون كثير من المعاناة والمقاساة أن أكثر المواد التي اكتظ بها ذلك السجل التاريخي هو الظلم السياسي الذي نشأ من ممارسة

---

(١) النورسي، إشارات الإعجاز، ص ٣٦.

(٢) النورسي، الصيقل ، ص ٣٤٥-٣٤٦.

(٣) النورسي، الكلمات، ص ٤٧٥.

(٤) النورسي، الصيقل، ص ٤٦٤.

(٥) النورسي، الصيقل، ص ٤٦٤.

الساسة الملوك والأباطرة والقياصرة والأكاسرة والفراعنة الأعمال العدوانية تجاه من هم تحت إمرتهم وفي قبضة أيديهم حيث ساموهم أفظع أنواع الذل والمهانة وأشد أنواع الإيذاء وأسوء أصناف التعذيب والازدراء لأن أكبر الآليات التي كان الساسة القدامى يرون أنهم إنما يستطيعون أن يضبطوا بها أقوامهم وشعوبهم عن التفرق والتلاشي ويكبحوا بها أممهم عن المعارضة والخروج على رؤسائهم وينهروهم بها عن تحقيق مآربهم ويزجروهم بها عن مطالبة حقوقهم هو الظلم والعدوان والجور والاعتداء على أولئك الذين كانوا في إمرتهم وتحت رئاستهم. وفي هذا السياق يشير النورسي إلى بعض من أسباب الظلم السياسي ونتائجه المريرة الفظيعة بما كان يجري أيام ذاك على الساحة الدولية من الأحداث إذ يقول فلاشك ان في هذا الصراع القائم على الكرة الارضية مظالم ودماراً تبكي من هوله السموات، اذ تضيع وتفنى حقوق كثير من الابرياء والمظلومين، لان دستور المدنية الدنيّة الظالم هو أن: يُضحّى بالفرد لأجل الجماعة ولا يُنظر الى الحقوق الجزئية من أجل سلامة الأمة. وقد فتح هذا الدستور ميدان مظالم شنيعة لم يُر مثلها حتى في القرون الأولى.(١) فمن جراء ذلك منع الإسلام عن الظلم منعا جادا باتا وأوعد عليه تلك المواعيد الأكيدة الشديدة التي أسلفنا ثلة منها فيما سلف. وكحجة قاطعة على هذا التحريم الأكيد الشديد نهى الله سبحانه لا عن الظلم فقط بل نهى حتى عن الميل إلى الظلمة وأوعد عليه إيعادا شديدا: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ (هود: ١١٣) كما حكي في هذا المعنى أن الموفق صلى خلف الإمام فقرأ بهذه الآية فغشي عليه فلما أفاق قيل له فقال هذا فيمن ركن إلى ظلم فكيف بالظالم.(٢) ويستبين أيضا موقف الإسلام الحاسم من الظلم بجملة من الأحاديث النبوية الكريمة فمنها ما في الصحيحين عن أبي موسى، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود: ١٠٢).(٣)

---

(١) النورسي، ملحق قسطموني، تعريب إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، إستانبول ١٩٩٤، ص ١٧٢.

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دار الفكر، الطبعة الثانية ج ١٢، ص ١٧٠.

(٣) ابن كثير أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، مؤسسة الريان، الطبعة الثانية، بيروت ١٤٢٠\ ١٩٩٩، ج ٢، ص ٥٩٧.

وفي سياق الظلم السياسي الذي هو أفظع أنواع الظلم وربما من أكثرها انتشارا في ربوع العالم عبر التاريخ نجد للإمام النورسي رحمه الله لمسات جديرة بالاعتبار إذ نراه ينطلق من مضمون الآية الكريمة التي أسلفناها فيجوب شوطا أوسع في معارضة الظلم ومجابهته والتبعيد عنه إذ يرى أن التلبس فكرا وقولا بأسباب الظلم من الظلم كما قال: إن الانسان الذي يخوض غمار هذه الحرب الطاحنة يمثل أصدق تمثيل الآية الكريمة ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢) لذا لايجوزالنظر إلى المظالم المحيرة فضلاً عن موالاة تلك التيارات وتتبع أخبارها والاستماع إلى دعاياتهم الكاذبة الخدّاعة ومشاهدة معاركها بأسىً وحزن. لأن الرضى بالظلم ظلم وإذا ما مال اليه يكون ظالماً. وإذا ما ركن اليه ينال زجر الآية الكريمة ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ (هود: ١١٣).

وفي سياق الظلم السياسي نرى الشيخ النورسي يتعرض لظلم بعض تلك الدول الظالمة المستعمرة التي كانت تدعي الحرية وتغر الشعوب وتمنيها الأماني الباطلة بمواعيد الحرية ودعاواها العريضة أنها إنما تسعى لإرساء الحرية لاغير وهي في ذلك كما قال كعب بن زهير: إن مواعيد عرقوب كانت لها مثلا * وما مواعيدها إلا الأباطيل فيقول النورسي تعريضا بهذه الدول الجائرة وأمثالها التي تحذو حذوها في زمننا هذا من كثير من الدول المعاصرة: "نعم! لقد أظهر الزمان أن دولة تسمى داعية الحرية، قد كبّلت بثلاثمائة من موظفيها المستبدين ثلاثمائة مليوناً من الهنود، منذ ثلاثمائة سنة، وسيطرت عليهم كأنهم ثلاثمائة رجل لاغير، حتى لم تتركهم يحركون ساكناً. ونفذت قانونها الجائر عليهم بأقسى صورة من صور الظلم، آخذة آلاف الأبرياء بجريرة مجرم واحد. وأعطت لقانونها الجائر هذا اسم العدالة والانضباط. فخدعت العالم ودفعته إلى نار الظلم. هذه الدولة غدت مقتدى ذلك الاستبداد القادم في المستقبل"[1]

فيستنتج من بعض ما اقتبسناه من كلام الإمام النورسي أن للنورسي حساسية شديدة ورد فعل قويا تجاه جميع أنواع الظلم ومظاهره ولكن بتصفح كلامه يبدو أن هجومه وشنه الغارة على الظلم السياسي أشد وأبقى.

٦.٣. الظلم الحضاري

إن مما لا يغفل عنه النورسي - ولا يليق لمثله أن يغفل عنه- هو تلك المظالم

(١) النورسي، ملحق قسطموني، ص ١٢٦.

الناشئة عن ذيوع مبادئ الحضارة الحديثة بين ربوع العالم وانتشار مفاسدها وعن الحرص على تقليد عاداتها والتمسك بتعاليمها والهروع إلى امتثال أحكامها في أوساط المجتمعات الأخرى، ففي يومنا هذا الغالبية العظمى من الفساد والدعارة والخلاعة والشراسة وسوء الأخلاق ومنكرات الفعال تنتشر من انتشار الثقافة الحضارية الحديثة التي خالطت الناس أفرادا وزرافات تلك المدنية الدنية التي أذاقت البشرية في هذا العصر آلاماً جهنمية حتى صرخت في كل مكان: لتعش جهنم![1] خالطت تلك الحضارة الكيان الإنساني في شرق الديار وغربها وجنوبها وشمالها مخالطة اللحم والدم فربما لا ترى اليوم سيئة من السيآت إلا وللحضارة الحديثة حظ فيها قل أو كثر نصيبا مفروضا. ومن جراء تلك الغلبة القاسرة للحضارة الحديثة الغربية بعجرها وبجرها صارت السيادة المطلقة والهيمنة الكاملة للعقلية الغربية في معظم مقومات الحياة رضينا أم أبينا فهي التي توجه حياة معظم بني البشر شرقا وغربا، جنوبا وشمالا. نرى يراع الإمام النورسي يفصح في هذا السياق عما يلي: "إن المدنية الغربية الحاضرة لا تلقي السمعَ كلياً إلى الأديان السماوية؛ لذا أوقعت البشرية في فقرٍ مدقع، وضاعفت من حاجاتها ومتطلباتها، وهي تتمادى في تهييج نار الإسراف والحرص والطمع عندها بعد أن قوضت أساس الاقتصاد والقناعة، وفتحت أمامها سُبل الظلم وارتكاب المحّرمات . زد على ذلك: فقد ألقت - بذلك - الانسان المحتاج المسكين في أحضان الكسل والتعطيل المدمّر، بعد أن شجعته على وسائل السفاهة. وهكذا بددت الشوق لديه الى السعي والعمل، فأضاع الانسان عمره الثمين سدىً باتباعه هوى المدنية الحاضرة وبسيره وراء سفاهتها ولهوها[2]. ونرى في هذا الصدد أن النورسي يتعرض لنقطة حيوية هامة كثر ما يتمسك بها المتمسكون بمبادئ الحضارة الحديثة المخالفون للأحكام الإسلامية فيفند تلك المقولة التي تزعم أن التربية الوجدانية الحديثة تكفي عن تربية الوحي وتغني غنائها فلا تبقى حاجة إلى التمسك بمبادئ الوحي. يرد النورسي على ذلك: "فملكة تعديل الاخلاق الموهومة لا تكفي للمحافظة على القوى الثلاثة في الحكمة والعفة والشجاعة، لذا فالانسان بالضرورة محتاج الى نبي يمسك بميزان العدالة

---

(١) النورسي، الكلمات

(٢) النورسي، ملحق أميرداغ/٢، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، إستانبول ١٩٩٤، ص ٣٨٠.

الإلهية النافذة والمؤثرة في الوجدان والطبائع[١] ونجده رحمه الله أكثر صدعا بالحق وتصريحا ببعض من عيوب وشين الحضارة الغربية إذ يقول: إن سياسة المدنية الحاضرة تضحي بالأكثرية في سبيل الأقلية، بل تضحي قلةٌ قليلة من الظلمة بجمهور كبير من العوام في سبيل مقاصدها[٢]. والإمام النورسي لا يكتفي بذلك بل تراه بعضا يتعرض لبعض تفاصيل الشؤون الحضارية وعادات المدنية الحديثة التي تأتي بالظلم.[٣]

خاتمة

إن الإنسانية البائسة مرت عبر تاريخها الطويل بفترات مظلمة بظلام دامس من الجور والظلم بما اغتصب منها حقوقها كلا أو بعضا وبما سلب حرياتها واعتديت على كراماتها. فتجاه تلك الليلة المدلهمة بأنواع الظلم والفساد بعث الله رحمة بعباده المرسلين لعله يخفف عنها شيئ من عبئها الذي كانت تزرح تحتها فمثلا إن الوحي القرآني الذي هو آخر ما نزل من الوحي السماوي هو الذي أظهر جوهر إنسانية الناس. ثم أخرجهم من زاوية الوحشة وَرقي بهم الى أوج المَدَنية وصيّرهم معلِّمي عالَمهم، وأسَّس لهم دولةً ابتلعت الدول كعصا موسى فلما ظهرت صارت كالشعلة الجوّالة والنور النّوار فاحرقت روابط الظلم والفساد.[٤]

ومن الجانب الآخر فإن خفف عبر التاريخ شيئ من عبء المظالم التي كانت البشرية تعاني منها أعظم الآلام وأفجع الأسقام فإنه إنما كان من هداية الوحي السماوي. ومن هنا كانت تلك الثلة الطاهرة من الرجال الصالحين الذين تتلمذوا على الأنبياء والمرسلين وتربوا بين أحضان مدرسة الوحي السماوي حربا شعواء على الظلم بكافة أنواعه فاقتلعوا جذوره واستأصلوا شأفته -ما وجدوا لذلك سبيلا- من تلك الأوساط التي كانت كلمتهم فيها مسموعة، وأمرهم مطاعا وقاوموا الظلم بكافة أنواعه وعارضوه مهما كانت عواقب المعارضة وخيمة ونتائجها وبيلة واستمرت هذه العادة الميمونة عبر تاريخنا الإسلامي المجيد، فما أتى دور من أدواره إلا وترى ثلة من علماء

---

(١) النورسي، الصيقل الإسلامي، ص: ١٣٩.

(٢) النورسي، الكلمات، ص ٨٦٢.

(٣) انظر النورسي: الكلمات، ص ٤٧٥، ٨٤٩؛ والمثنوي العربي النوري، ص ١٧٨، ٢١٣؛ وملحق قسطموني، ص ١٣٦.

(٤) النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، إستانبول ١٩٩٤، ص ١٧١.

الأمة وزهاد الملة صادعين بالحق محاربين للظلم ومنافحين عن حقوق المظلومين لا يخافون في الله لومة لائم.

وآخر تلك الحلقات المباركة هو الإمام النورسي فحينما تجول بين جنبات كلياته المنيرة تستنير روحا وعقلا ووجدانا وتبَشُّ بما ترى فيها من تلك المعاني المنيفة والكلمات القوية والجمل الرشيقة ضد الظلم والجور. فللنورسي صولات على الظلم وجولات وله هجوم عنيف بكلمات لاذعة وصفعات أليمة على الظلم بجميع انواعه وكافة ألوانه. يجد القارئ من خلال كلماته التي تشن الغارة على الظلم عقلية الحق والعدل وروح الخير والرحمة التي يطمئن إليها البال وتسكن لها النفس وتقر منها العين فلا يستهين بأي شيء من أنواع الظلم ويكافح ضد جميعها كفاحا مستميتا وكفى.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر

القرآن الكريم.

ابن عاشور محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس ١٩٨٤.

ابن كثير أبو الفداء، اسماعيل، تفسير القرآن العظيم، مؤسسة الريان، الطبعة الثانية، بيروت ١٤٢٠\١٩٩٩.

أحمد بن حنبل في مسنده من طريق طارق بن شهاب. المكتبة الشاملة الألكترونية الإصدار الثاني.

التفتازاني مسعود بن عمر، مختصر المعاني ، إستانبول بلا تاريخ.

جيجك محمد خليل، دلالة أسماء سور القرآن الكريم من منظور حضاري، مؤسسة الرسالة، بيروت ٢٠٠١.

الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناوط ، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية بيروت ١٤٠٢\١٩٨٢.

الصلابي علي محمد، الأيوبيون بعد صلاح الدين، دار المعرفة، بيروت ١٤٣٠\٢٠٠٩.

محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دار الفكر، الطبعة الثانية.

محمد عمارة، الإسلام في عيون غربية بين افتراء الجهلاء.وإنصاف العلماء، دار الشروق، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤٢٥\٢٠٠٥.

النورسي بديع الزمان سعيد، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، إستانبول ١٤١٩\١٩٩٨.

الصيقل الإسلامي، ترجمة وتحقيق إحسان قام الصالحي، دار سوزلر للنشر، الطبعة الأولى، إستانبول ١٤١٦\١٩٩٥.

اللمعات، ترجمة إحان قاسم الصالحي، دار سوزلر، الطبعة الأولى، إستانبول١٤١٣\١٩٩٣.

إشارات الإعجاز، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر إستانبول ١٩٩٤.

المثنوي العربي النوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر إستانبول ١٤٢٠\١٩٩٩.

ملحق قسطموني، تعريب إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، إستانبول ١٩٩٤

ملحق أميرداغ/٢، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، إستانبول ١٩٩٤.